غاندى الفيلسوف المجاهد

للأستاذ حسين مهدى الغنام

— ١ —

فى اليوم الثلاثين من شهر يناير الماضى قتل موهانداس كارامشاند غاندى ، وهو ذاهب إلى الصلاة ، برصاص أحد أبناء ملته ودينه المتعصبين ، فأعاد إلى الأذهان سيرة الأنبياء والمصلحين كما أعاد بحياته حياة السيد المسيح .

لقد كانت حياة غاندى مأساة كما كان موته مأساة أشد وأروع . وكان غاندى فيلسوفا جعل السياسة مذهبه .

وقد ظل خمسين عاماً يكافح فى سبيل استقلال بلاده ، حتى لقيه فى حياته ، ولكنه لم يعش حتى يرى السلام يرفرف على ربوعها الترامية ، وهو الذى وهب نفسه لخدمة السلام .

عاش غاندى كالناسك . لبس ملابس خشنة فى غاية البساطة ، وكان يغزله بنفسه على مغزل يد يدوى ، وحفين (صندلين) من القش !

ولم يأكل اللحم ، بل عاش على الفاكهة والخضر واللبن وقضى حياته كلها مجاهداً . وقد اتخذ جهاده ثلاث وجهات رئيسية :

حدة سوف يعهد للرجل المنتظر أن يزار زئيره فتصغى له آذان ملايين من أبناء الشرق ، ثم تنطلق من مجامعها إليه مجيبة لندائه ، إذا انطلقت إليه أرسالاً ، فيومئذ لن يقف فى طريقها أولئك ساسة المافقون ، ولا أولئك الدهماء المتبجحون ، ولا أولئك المدعون المخادعون ، بل سوف يصيرون نسياً ، وقد طال ما خيلت لهم نفوسهم أنهم الرؤوس والسادة .

فأنا إن كتبت ، فإنما أكتب لأتعجل قيام هذا الرجل من مار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صفائحها منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا القليل ، ثم نسمع صرخة لحياة الحرة العادلة يستهل بها كل مولود على هذه الأرض الكريمة فى ورثناها بحقوقها ليس لنا فى فتر منها شريك .

محمود محمد شاكر

الأولى ضد الطبقات المدينة العالية التى فرضها المستعمر على مئات الملايين من طبقات الهند الدنيا ، التى لا تجد القوت .

والثانية جهاده ضد المستعمر .

والثالثة جهاده فى سبيل السلام والحب ، ومناضلة الشرور والخطايا ، آخذا بمبدأ المقاومة السلبية وعدم العنف .

كما أنه كافح كفاحاً اقتصاديا واجتماعيا عظيما ، فنبه الوعى القومى والاقتصادى ، وأنشأ آلاف المدارس ، وحارب الرجعية ونادى بحق المرأة الهندية ، ولكنه غالى فى تقديس الناحية الدينية وغذاها بين الشعب ، جاعلا من التسامح والأخاء بين الهندوس والمسلمين والمنبوذين هدفه الأول ...

ولقد شابه غاندى الفيلسوف الروسى الإنسانى الشهير ، ليو تولستوى ، وتأثر به فى حياته تأثراً كبيراً .

وكان دائماً يبشر بقوله : « أنكم سوف لا تقترفون القتل » ولكنه مات قتيلا !

وكان مثل تولستوى فى لباسه الخشن ، وفى نظرية عدم العنف والمقاومة السلبية ، وفى دفاعه عن السلام ودعوته لأنيان الخير ، والمعروف والمحبة بين الناس جميعاً ، وإن لم يكن تولستوى فى مثل إخلاص غاندى !

وكان الناس فى كل مكان يتشوقون إلى تذوق ثمار فلسفته ، ولكن قلوبهم لم تعمر بمثل الايمان الذى عمر به قلبه ، فلم يفعلوا فى سبيل تأدية رسالته شيئاً أكثر من التمنى !

كان غاندى يعمل فى سبيل الروح ، ولكن الناس الذين يشر بينهم بمبادئه كانت تربطهم أسباب قوية بعالم الماديات الدنيوى فى عالم الوقائع والأرقام التى عمته جميعاً حتى غزت الشرق نفسه ، الشرق أبا الروحانيات ومهد السلام .

إلا أن الشرق شرق بطبعه وغريزته . وفى الشرق لطف غريزى ، فلم يعنت هؤلاء الناس غاندى بالجنون ، كما نعت الروسيون والأمريكيون تولستوى ، ولكنهم بالغوا فى نعتهم للفيلسوف الشرقى حتى ألهوه ، وسموه القديس ... سموه المهاتما !

ولعل غاندى أخطأ فى مخاطبته لعامة الجماهير ، وتبشيره بينهم ، كما قال بعض مفكرى الهند ، وقالوا لو أن غاندى أنصف نفسه لجمع حوله خلاصة الشباب الطامحين إلى بناء الهند الحديثة ، فإن التعاليم السامية العميقة تفعل فعلها فى نفوس الذين أصابوا

من الثقافة حظا كبيراً ؛ وإلى هذا يعزون بعض فشله فى تعميم دعوته .

* * *

يقول السردار إقبال على شاه عن غاندى والشعب الإنجليزى « لقد أخطأ غاندى فى فهم عقلية الرجل الإنجليزى المتوسط ، إذا كان هـذا الشخص وجد ، ولهذا لم تفهمه الغالبية من الشعب البريطانى ، فلقد اختلفت العقليتان كما يختلف القطبان شمالا وجنوبا ...

« ولم يكن غاندى كذلك بالشخصية الرسمية القوية العنصر ، ومن هنا كان اختلافه عن ساسة الهند اليساريين ، فقد كان دائماً يعتذر للرسميات خطاياها ، وإن صح هذا فى الهفوات ، فإنه لا يصح فى الخطايا قطعاً !

« وكان غاندى فى نظر الرجل الإنجليزى فيلسوفا ضالا ، أو الكاهن ارفيع المقهور . وعقلية الرجل الإنجليزى لا تقبل هذا الوضع ، فلم تأبه له كثيراً ، لأنها لم تفهمه .

« ولكن للانجليز ذاكرة قوية ... وإنهم ليذكرون ما فعل غاندى قديماً من أجل أبناء وطنه المهضومين المدقعين الذين تدوسهم العلية من القوم ، ويذكرون ما صنع فى حرب البوير والزولو من عمل جليل وهو رأس كتيبة الإسعاف الطبى .

« إلا أن غاندى احتل من تفكير الإنجليزى ما يحتله كبار الإنجليز أنفسهم . والإنجليزى تسوءه الحملات العنيفة على أمثال هؤلاء ، لأنه يعتقد أنهم مخلصون ، والإنجليزى يرحب بالصراحة والإخلاص ويحترمها !

« ولقد استاء الرأى الإنجليزى العام من الحملات التى كانت توجه إلى غاندى فى بعض جرائدهم ، ومن الصور الهزلية التى تصوره عاريا بلا أسنان ، أصلع الرأس ، مخلوقاً عريان إلا من ذلك اللباس التقليدى .

« والمسلمون والإنجليز يتفقون فى هذه الناحية ، فكلاهما يحترم الشخصيات الفذة ، ويأنف من السخرية اللاذعة منها ومن مهاجمتها بلا اعتدال ، على عكس الغربيين الآخرين .

« وكان غاندى الوطنى ، والفيلسوف ، والداعية ، مجهولا من العالم كله ، حتى اعتزم أن يعتزل المحاماة فى جنوب أفريقيا ، وينقلب مجاهداً وسياسياً قوياً ..

« وكان قبل ذلك قد رأى بعض أنحاء الدنيا ، ورأى تعصب البيض ضد الملونين ، وإن كان هذا خف اليوم إلى درجة ما ! »

* * *

واقد حورب غاندى كثيراً حتى الكسندر العظيم كان يساعد معارضى غاندى مساعدات مادية كبيرة ، ليحدوا من نجاحه فى الهند .

ولكن ذلك الناسك الهزيل استحوذ على ألباب الملايين من الهنود ببساطته الدينية التناهية ، فاحترموه ثم أحبوه ثم عبدوه واعتقدوا أنه شبه إله !

فى سنة ١٩٢٢ سجن غاندى ، ثم أطلق سراحه بعد عامين وفى تلك الأثناء كان معارضوه فى حزب المؤتمر ، وهم المعروفون باسم سواراجست ، أكثر من اتباعه ، وأحسن منهم تدريبا واستعدادا ، وحضروا اجتماعا لهم وعارضوا ما سموه دكتاتورية غاندى فى حزب المؤتمر ، ثم انسحبوا ، فاعتبر غاندى هذا هزيمة له وانسحب ...

وعلى الرغم من تلك الهزيمة ، فقد كان لهذه اللفتة النفسانية البليغة أثرها فى تقوية غاندى فقد جلس صامتا ، وأخذ يتحدث بعد قليل ، ثم تكلم عن هزيمته ، وعن حالة الهند المؤسية ، ثم انحدرت دموعه على خديه وتتابعت سريعة . وهنا بكى جميع الحاضرين معه بدموع غزار . وانضموا إليه واحداً واحداً ، وهنا عادوا إلى صفه ثانية ، وكسبهم إلى جانبه من أضعف نقطة حساسة هاجمهم فيها .

فهذه القوة — فى بساطة مظهرها — وبتلك النفحة السيكولوجية حرك غاندى قلب الهند على بكرة أبيها ...

وكانت الجماهير تنظر إلى آرائه على أنها غير مستحيلة التحقيق فصدقوه فيما قال ، إذ كان فى نظرهم مبعوثا سماويا ، ويجب أن يكون صادقا فى آرائه .

وقدسى غاندى الحكومات الإنجليزية بالحكومات الشيطانية فصدقه الملايين من الهنود ... وما زالوا يعتقدون نفس الاعتقاد ، ولكنهم نسوا أن غاندى هو صانع هذا التعبير .

وكلما مرت السنون ، وكلما فشل غاندى فى تحقيق ما وعد به شعبه ، وكلما كان فشله مريعا ، زادت مكانته فى نظر الشعب وازداد هذا الشعب له حباً واحتراما وتبجيلا وتقديسا !

(يتبع)

حسين سهمى الغنام